تعريف ونقد

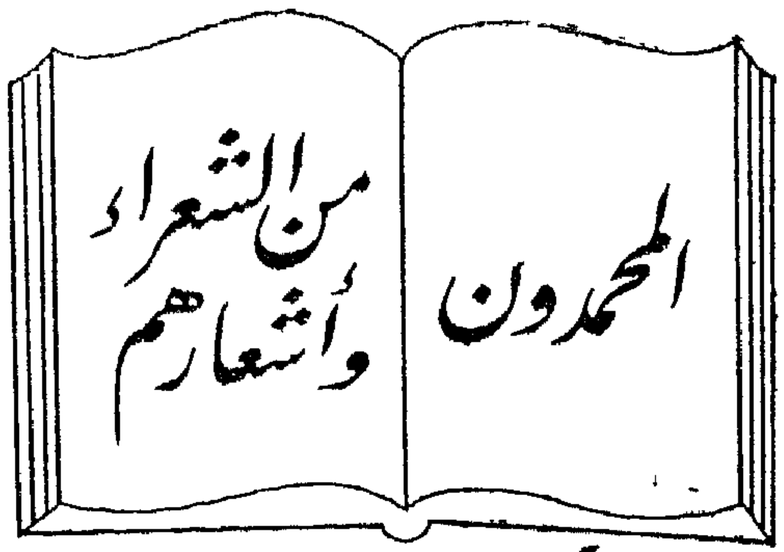

تأليف :
جمال الدين علي بن يوسف القفطي

تحقيق : الأستاذ رياض عبد الحميد مراد
تعريف ونقد : الأستاذ محمد عبد الغني حسن

مؤلَّف

هذا الكتاب ليس جديدا علينا ، فقد لقيناه فى كتاب « إنباه الرواة » الذى حققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، وفى كتابه الآخر : « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » كما عرفناه فى تصانيفه الكثيرة التى منها : « الذيل على الأنساب » للبلاذرى ، و « الإصلاح لما وقع من الخلل فى كتاب الصحاح » ، و « الدر الثمين فى أسماء المصنفين » ، و « الكلام على الجامع الصحيح للبخارى » و « نهزة الخاطر ، ونزهة الناظر »

ولقد أنصف محقق هذا الكتاب بالترجمة الوافية له فى مقدمة الكتاب ، وبهذا ظفرنا بترجمتين طيبتين لجمال الدين القفطى أولاهما للأستاذ محمد أبى الفضل أبراهيم وثانيتهما للأستاذ رياض عبدالحميد مراد محقق هذا الكتاب الذى نتناوله فى هذا التعريف .

وإذا كان المحققان قد التقيا فى كثير من وجوه الترجمة للقفطى فإنهما اختلفا حين أخذ كل منهما يعرف بالكتاب الذى حققه تعريفا شافيا وافيا .

والحق أن محقق « المحمدون من الشعراء وأشعارهم » قد وفى الكلام على المترجم لهم فى هذا الكتاب ، كما وفى الحديث عن القفطى وأسانيده وشيوخه ، ومصادر كتابه التى أخذ منها ونقل عنها ، وعن تحقيق نسبة الكتاب إلى القفطى ونقصه حيث انتهى عند حرف السين التالية للاسم الأول : محمد ، كما تحدث حديثا كان ضروريا عن طريقته فى تحقيق الكتاب ، وعرض منهجه فى التحقيق عرضا واضحا .

وقبل أن نمضى نحن فى الحديث على وجهه نود أن نقول إن الذين ترجموا للقفطى كثيرون ، فقد وردت ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ، ومعجم البلدان له أيضا — فى مادة جبلة — وتاريخ مختصر الدول لابن العبرى ، والطالع السعيد للأدفوى ، وسير أعلام النبلاء ، ومرآة الجنان لليافعى ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى . والوافى

بالوفيات للصفدى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وبغية الوعاة للسيوطى ، وحسن المحاضرة له ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ، وهدية العارفين ، وأيضاح المكنون ، ودائرة المعارف الأسلامية . كما ترجم له اثنان من باحثينا المعاصرين وهما : الأستاذ محمد أبو الفضل أبراهيم فى مقدمته على إنباه الرواة ، والأستاذ رياض عبدالحميد مراد فى مقدمته لهذا الكتاب الذى نعرضه .

والقفطى منسوب إلى « قفط » من أعمال صعيد مصر ، ومن هنا أدخله الأدفوى فى كتابه : (الطالع السعيد) . وتقلبت به أحوال فى طلب العلم . وفى الرحلة والتنقل فى داخل مصر وفى خارجها ، وفى ملازمة العلماء المقيمين والواردين ، وفى العمل بديوان الأيوبيين ، وفى الانقطاع والانقباض عن الناس معتزلا فى داره أولا ومنتهيا إلى الوزارة آخرا إلى أن أدركته منيته سنة ٦٤٦هـ

ونستطيع أن نعد كتاب القفطى هذا من كتب التراجم على طريقة الطبقات ... وإن كانت الطبقة هنا ليست مهنية ولا علمية ، وإنما هى طبقة الذين يلتقون فى الاسم الأول على لفظ (محمد) . ومن هنا لم تكن هذه الطبقة وقفا على قرن معين أو عصر معين وإنما اجتمع فيها كل من حمل اسم (محمد) فى أوله على مر العصور ، منذ القرن الأول للإسلام إلى القرن السابع الذى عاش فيه المؤلف شطرا قريبا من نصفه . فهو يضم تراجم المحمدين من الشعراء على مدى سبعة قرون تقريبا ، وينتقى من أشعارهم ما اتسعت له الرواية فى الكتاب .

وإذا كان اسم « محمد » هو موضع الاهتمام فى الترجمة لشعراء يتفقون فى هذا الاسم ويختلفون فى الأسماء التالية له من اسم الأب إلى اسم الجد فأن المؤلف القفطى قد راعى فى ترتيب الشعراء المترجم لهم أسماء الآباء وهى الأسماء التالية لاسم محمد . وإن كان لم يوفق فى الترتيب الهجائى فى بعض الأحوال كما فعل فى تقديم أحمد على إبراهيم . وكان الأولى أن يعكس لأن الباء فى إبراهيم قبل الحاء فى أحمد . وكما فعل فى تقديم محمد بن خلصة الشذونى الأندلسى على محمد بن الخضر التوخى المصرى . فإن الضاد فى الخضر تقتضى تقديم الشاعر على ابن خلصة حيث تأتى اللام بعد الضاد فى حروف الهجاء . ومن هنا صح لنا أن نتفق مع المحقق الفاضل حين قرر أن القفطى رتب تراجمه على أسماء آبائهم حسب التسلسل الألفبائى ملاحظا الحرف الأول فحسب . أما الحرفان الثانى والثالث فقد أهملهما إهمالا شديدا .

ونلاحظ كما لاحظ المحقق أن الترجمة للشعراء لا تأتى كل واحدة منها على قدر سواء . فبعضها يطول جدا . وبعضها يتجاوز فيه القصر حدا يدعو إلى الدهشة . كالترجمة لمحمد بن سلامة الكاتب المصرى . فقد بلغت ثلاثة أسطر يدخل فيها سطران للاستشهاد ببيتين من شعره . ومن التراجم

جمة للشاعر الكاتب « المفجع
بلغت بضع عشرة صفحة،
يبوردى فقد بلغت بضع
والترجمة للوأواء الدمشقى ،
محمد بن إدريس الشافعى ،
شاعر الأنبارى ، ولمحمد بن
، أما التراجم الموجزة
محمد بن بهان ، ومحمد بن أحمد
ومحمد الطبسى ، ومحمد بن عمر
ومحمد بن أسماعيل بن يسار وغيرهم
إن قصر الترجمة وطولها يرجع
شاعر وشهرته ، فهناك شعراء
ثم يحظوا من المؤلف بالإطالة
كالشاعر محمد بن أسماعيل
متقدم ذكره ، والمؤلف نفسه
فى أول الترجمة له بأنه (شاعر
اسمه فى الكتب) ومع هذا لم
تتخطى إلا ببضعة أسطر ثلاثة منها
يشعره وكان حقه الإطالة والوقوف
. ولكنا لا ندرى السبب فى
هكذا بين يدى المؤلف
العجيبة أدركتهم فى الترجمة
، كما أدركتهم فى حياتهم ،
ترجمة هذا ، وقصرت ترجمة ذاك.

فى كتابه هذا يعتمد على النقل
كثير من المصنفين العرب ، وهو
ينقل نقلا حرفيا لا يتصرف بعبارة من
ونستطيع أن نرد أكثر تراجمه إلى
نقل منها . وقد كان صاحبنا

محظوظا كل الحظ حين ازدحمت بين يديه وتحت عينيه المصادر فأخذ منها بلا هوادة ، وقد سبب له هذا الوقوع فى التكرار لبعض المترجم لهم ، كما فعل فى ترجمته للشاعر محمد بن الحسن البصرى أبي يعلي الصوفى ، فقد أورده فى الترجمة المرقمة ٢١٤ ، ثم عاد فكرره بعبارات أخرى فى الترجمة المرقمة ٢١٩ ، وكأنهما لشخصين مختلفين مع أنهما لشخص واحد والمجال بين الترجمتين غير بعيد المدى فلا يزيد على أربع صفحات . . . وقد بلغت المصادر التى نقل عنها القفطى خمسين مصدرا تتبعها المحقق الفاضل بالإحصاء وهو جهد طيب يضاف إلى الجهد الذى بذله المحقق ، حيث رتبها ترتيبا زمنيا وفق العصور من القرن الثالث الهجرى إلى القرن السابع ، ومن هذه الكتب : طبقات الشعراء لدعبل ، ، والإكليل للهمدانى ، والحدائق للجيانى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، واليتيمة وتتمتها للثعالبي ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، ودمية القصر للباخرزى ، والدرر الخطيرة لابن القطاع ، والذخيرة لابن بسام ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، والخريدة للعماد ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى .

وقد يذكر القفطى مصادره فى الترجمة للشعراء المحمدين ولكنه كثيرا ما يغفل ذكر المصادر . . وهو فى هذا ليس نسيج وحده . فقد جرت عادة أكثر المؤلفين العرب على هذا . وقد لاحظ عليه

المحقق أنه نقل ترجمة ابن عتاب الفقيه الشاعر عن معجم الشعراء للمرزبانى ، ونقل ترجمة محمد الخوارى عن دمية القصر للباخرزى دون أن يشير إلى واحد من المصدرين .

وقد لوحظ أن كتاب « المحمدون من الشعراء وأشعارهم » . . وأعنى الموجود منه فى المكتبات — لم يبلغ بأسماء آباء الشعراء المحمدين إلى نهاية حروف الهجاء — أعنى حرف الياء — ولكنه بلغ حرف السين حيث الترجمة لمحمد بن « سعيد » الرزاز البغدادى . فأين بقية الحروف بعد السين المهملة إلى آخر حروف الهجاء ؟ وقد أثار هذا النقص تساؤلات كثير من الناس . فهل أتم القفطى كتابه حتى حرف الياء ثم أضاع الزمان — فيما أضاع — بقية الكتاب من حرف السين إلى آخر حروف المعجم ؟ نحن أمام مشكلة تقتضى السؤال والفضول ، وخاصة أن القفطى فيما بين أيدينا من كتابه حتى حرف السين يحيل إلى حروف أخرى بعد السين التى بلغ عندها المطاف ، فيقول على سبيل المثال : (وقد أوردت ذكره فى باب الميم فى أسماء آباء المحمدين). ومعنى هذ أن ما بين حرف السين والميم فى آباء الشعراء مفقود . وبلغ التساؤل بالباحثين إلى حد أن ناسخ مخطوطة من الكتاب يعلل سبب النقص الذى صادفه فى أثناء النسخ قائلا : (هذا آخر ما وجدته بخط مصنفه ، لكنه أحال فى أوله على بعض حروف بعد هذا الحرف ، فما أدرى هل انخرم الكتاب أو أدركته المنية قبل تمامه ؟)

ويعلل المحقق لنا ذلك النقص بأن القفطى حين بدأ بالكتاب كان ينوى أن يتمه ولا يتوقف فيه ، ولذلك كان يحيل فى أوله على آخره أملا منه أن يحقق أمله ؛ ولكن عودته إلى الوزارة قد شغلته عن إنجاز الكتاب ؛ ثم جاء الموت فصرفه عن العمل جملة — وكان يومئذ مشغولا بالوزارة — فمات والكتاب لم يتم تأليفه ، ولذلك جاء أبتر ناقصا :

ومهما يوجه إلى كتاب القفطى هذا من نقد فى النقل وما إليه ، فلا شك أنه صان لنا كثيرا من التراجم بعضها مدون فى كتب نقل عنها ، وبعضها لم يصل إلينا فى مخطوطاته التى كانت بين يدى القفطى فى ذلك الحين

وسواء أكان الشعر الذى ساقه المؤلف فى كتابه من استشهاده هو أم من استشهاد الذين نقل عنهم وأفاد منهم فإنه لا محيص من القول بأن الانتقاء فيه جيد ، والاختيار طيب . ولن نزحم هذا الفراغ المحدود بنقل نماذج من الشعر المستشهد به للشعراء الذين ترجم القفطى — أو تصدى — للترجمة لهم . إلا أن نماذج من شعر محمد المعصومى ص ١٠ وشعر محمد الأبيوردى ص ٤٥ ، وشعر المفجع ، وشعر الوأواء الدمشقى ، وشعر محمد الفروخى المكنى بأبى نصر ، وشعر محمد أبى العباس الكاتب ص ١٤٦ قد تصلح أن يشار إليها هنا ليرجع إليها القارىء الذى بين يديه نسخة من هذا الكتاب.

ولا بد هنا ونحن فى معرض الحديث عن الشعر المسوق فى هذا الكتاب أن نشير إلى تحقيق المحقق لهذا الشعر ، وتحقيق مدى نسبته لأصحابه .

ونأخذ مثالا على ذلك الأبيات التى تقول :

لا تعجبى يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى

لا تأخذوا بظلامتى أحدا
طرفى وقلبى فى دمى اشتركا

والتى أولها :

أين الشباب ؟ وأية سلكا
لا أين بطلب ؟ ضل بل هلكا

فقد نسبها المؤلف القفطى إلى محمد بن أحمد ابن هارون البردانى — فى الترجمة رقم ٢٣ صفحة ٥٦ — ولكن المحقق الفاضل يقول إن هذه الأبيات هى الأول والثانى والثامن من مقطعة تبلغ ثمانية أبيات تنسبها المصادر القديمة لدعبل على الخزاعى . فقد ورد الثانى والخامس فى الشعر والشعراء ص ٣٥ والأول فى نقد الشعر ، ص ١٦٦ والأول والثانى والسابع والثامن فى الأغانى حـ ٢٠ ص ١٢٧ ، والأول والسابع والثامن فى « النجوم الزاهرة » جـ٢ص ٣٢٣، والمقطعة كاملة فى شعر دعبل بن على الخزاعى صنعة الدكتور عبدالكريم الأشتر ص ١٦٠ .

ولعل ورود الأبيات الثلاثة فى كتاب القفطى يؤكد قضية اضطراب نسبة الشعر إلى الشعراء وهى قضية ما زلنا نعانى منها الكثير .

وفى كتاب « المحمدون من الشعراء » طرائف أدبية كثيرة ، ولعل أطرفها — فى نظرى — ما وقع فى شعر محمد الخباز البادى من اقتباس للقرآن الكريم فى أكثر شعره . ووجه الطرافة أن هذا الشاعر كان أميا ولكنه كان يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ، كما كان يحفظ كثيرا من أمثال العرب ، فأدخل كل ذلك فى شعره كقوله :

ألا إن أخوانى الذين عهدتهم
أفاعى رمال لا تقصر فى لسعى
ظننت بهم خيرا فلما بلوتهم
نزلت بوادى منهمو غير ذى زرع

وكقوله :

سار الحبيب وخلف القلبا
يبدى العزاء ويضمر الكربا
قد قلت إذ سار السفين بهم
والشوق ينهب مهجتى نهبا
لو أن لى عزا أصول به
لأخذت كل سفينة غصبا..

وإذا جاز لنا أن نعود إلى قضية الاضطراب فى نسب الشعر فإنا نلاحظ أن القفطى قد وقع له هو نفسه شىء من هذا ، فقد نسب إلى

الشاعر المفجع قوله فى غلام جدر فازداد حسنا ص ١٩ :

ياقمرا جدر حين استوى
فزاده حسنا وزادت همـوم
كأنما غنى لشمس الضحى
فنقطته طربا بالنجوم

ثم جاء فى صفحة ٤٧٣ لينسب إلى الشاعر محمد بن السراج البغدادى هذين البيتين مع اختلاف يسير جدا فى الرواية ، حيث جاءا هنا هكذا :

ياقمرا جدر لما استوى
فزادنى حزنا وزادت همومى
أظنه غنى لشمس الضحى
فنقطته طربا بالنجوم ...

وبعد : فأظن أن هذا كله لن يشغلنا عن الجهد العظيم الذى بذله المحقق فى هذا الكتاب . وهو جهد يلاحظه القارئ من أول وهلة . وقد أضاف الأستاذ رياض مراد إلى جهده الفائق فى التحقيق والتخريج والتعليق جهدا آخر فى صناعة الفهارس ، فصنع فهرسين جليلين : أحدهما فهرس زمنى رتب فيه الشعراء وفق سنى وفاتهم ، لأنهم جاءوا فى متن الكتاب مرتبين وفق أسماء الآباء — بعد اسم محمد — ترتيبا هجائيا . وهذا الفهرس الزمنى يسد نقصا كبيرا فى الكتاب فات المؤلف ، حيث لم يذكر مواليد الشعراء ، ووفياتهم إلا نادرا ... فاستدرك المحقق على هذا النقص الكبير بعمل هذا الفهرس الزمنى . وياليته كان قد وضع وفيات الشعراء فى صلب الكتاب نفسه — أعنى فى الهوامش — بأدنى كل ترجمة ، حتى تقع عين القارىء عليها بأيسر نظرة إلى الهامش فى موضعها من النص . بدلا من الرجوع إلى الفهرس الذى يقطع سلك النظر . أما الفهرس الآخر الذى صنعه المحقق فهو فهرس مكانى للشعراء رتب فيه المترجم لهم على مناطق العالم العربى الأسلامى . فهناك شعراء الشام وشعراء العراق وشعراء العجم وشعراء مصر وشعراء المغرب وشعراء الأندلس ، وشعراء صقلية . وهو عمل جليل . لولا أننى كنت أرجو أن تأتى أمكنة الشعراء أو أوطانهم فى هوامش ترجماتهم مع ذكر وفياتهم ، جمعا للاثنين فى مكان واحد من صلب الكتاب ومتنه لا ذيله المفهرس .

وعلى الرغم مما بذله المحقق من جهد فى الكتاب وقعت فيه أخطاء مطبعية وأخرى غير مطبعية ، وقد تداركها فى ثبت بالتصويبات يقع فى ست صفحات كل صفحة منها تحتوى على جدولين مما يدل على أن أوهاما وأخطاء غير قليلة قد وقعت ، إلا أن أخطاء أخرى لم تذكر فى هذا الثبت ونحن مشيرون إليها ههنا .

ص٢٣ : ورد البيت الآتى هكذا بالضبط :

لو أعرض الناس كلهم فأبوا
لم ينقصوا رزقى الذى قسما

بم الياء من الفعل : ينقصوا ، والصواب
وجهه لأنه فعل ثلاثى .

ص ٢٥ ـــ السطر الثانى : فتطاول الناس .
. الصواب : فتطال . إذ لا محل للتطاول هنا

ص ١١٦ ـــ السطر التاسع : جاء قوله :
. من الرمل) والصواب أنه من مجزوء
ومن

ص ٢٥٤ ـــ السطر الثانى : جاء البيت
هكذا من الخفيف :
حو : أحسن النحو فما فيه
معيب ولا به إزراء

والبيت هكذا مكسور فى شطره الأول
.. أهتد إلى صوابه وإن كان جاء هكذا
فى معجم الأدباء .

ص ٢٧٣ ـــ السطر الثانى عشر : جاء
البيت الآتى هكذا :
وحتى هذه لفتها
تكاد تحت الثوب تنسبك

والشعر الثانى مكسور ، وصوابه :
تحت ثيب يالجمع لا بالفرد

ص ٣٠٨٣ ـــ السطر العاشر : جاء البيت الآتى هكذا :
قلت لمن لام : لاتلمنى
كل امرئ عالم بشأنه

بوضع همزة على ألف لفظة : بشأنه ،
والصواب : بشانه من دون همز لأن
البيتين التاليين هما :
ما الذنب فيما علمت أنى
سجدت للقرد فى زمانه
من شدة النفس أن تراها
تحتمل الذل فى أوانه

وبعد : فهذه هنوات ضئيلة قليلة جدا لاتعيب هذا العمل الطيب الذى قام به الأستاذ المحقق فى كتاب ألفه عالمنا وأديبنا القفطى المصرى ، وأصدره مجمع اللغة العربية فى دمشق فيما يصدره من ذخائر التراث العربى ، وأخرجه فى مجلد ضخم يقع فى تسع وخمسين وسبعمائة صفحة من القطع الكبير .

ولعل هذه فرصة مواتية ، ونهزة سانحة لتحية مجمع دمشق على ما يقوم به من جهود قيمة مقدرة فى كشف الغطاء ، ونفض الغبار عن تراثنا التأليفى العظيم .

محمد عبد الغنى حسن